يحدث. تذكر أن المرأة البدينة لم تحدثه بكلمة بعد عودته. أدرك أكثر من أى وقت أن ما سيجده حين يعود لن يدهشه. لقد كانت رحلته إلى مقر الهندسة على غير ما توقع. فبعد أن خرج من المكتب الأول قرر ألاً ينصرف قبل أن يصل إلى حل. دلف إلى مكتب آخر فأشار له الموظف الجالس بيده إلى المكتب المجاور دون أن يسمعه أو يعرف منه شيئا. فى المكتب الثالث وجد ثلاثة رجال تسبقهم نظاراتهم اللامعة. يبسطون أوراقا عريضة فوق منضدة واسعة، وفى أيديهم عصى طويلة يشيرون بأطرافها فوق الورق ويتحدثون همسًا. كانت قمصانهم بيضاء لامعة وسراويلهم منضبطة عليهم. أرهبته العصى الطويلة وخرج إلى غرفة أخرى. وجد بها رجلا يشرب شايا ويدخن سيجارة. حكى له الحكاية كلها والرجل صامت. فى النهاية قدم إليه الرجل كوبا من الشاى فرفضه وخرج. صعد الطابق الثانى متذكرا أن الشرطى كان قد أشار إلى أعلى حيث مكتب المدير العام. وجد الطابق لا معا ونظيفا. أرضيته مغطاة بسجاد فخم تغوص فيه قدماه. رأى فتيات رشيقات، تخطرن مسرعات من غرفة إلى أخرى عن يمينه ويساره. فى أيديهن أوراق، ويتبادلن الابتسامات وهن يتقابلن. كانت ملابسهن بهية زاهية. قصيرة تكشف جزءا كبيرا من السيقان. ورأى بطول الصالة الواسعة التى تمتد نهاية السلمين الصاعدين من أسفل، أبوابا مغلقة يجلس أمامها رجال مسنون على مقاعد واطئة. كانت الأبواب تفتح وتغلق بسرعة، تخرج منها الفتيات أو تعد إليها. الرجال المسنون جالسون جميعًا بلا حركة كالأصنام التى لم يرها، وعرف أن الناس كانت تعبدها قبل سيدنا محمد. لم يعرف أين حجرة المدير العام. لكنه بعد أن تحير قليلا أدرك الغرفة. ذلك أنه وجد أن أكثر الفتيات يخرجن

من المكاتب المختلفة، ويتجهن إلى باب واحد يدلفن منه ويغبن قليلا ثم يخرجن قال فى نفسه إن هذا الباب لا بد وأن يفضى إلى مكتب المدير العام، فلا بد أنهم يعودون إليه فى كل شىء. لكنه وهو يتجه إلى الباب رأى عددا من الرجال المسنين ينهضون ويتجهون إليه. وقف متحيرا أمسكوه من كتفيه وذراعيه وأعادوه إلى أول السلم الذى صعد منه وأشاروا إلى أسفل فنزل.

* قال كأبيه، اللهم اجعل من أمرى رشدا. هل هذا معقول؟ هل هذه سميرة حقًا؟

قال كأبيه. اللهم يسر وأعن. لو كانت هى لن يعود. فالدنيا ستكشف أستارها القبيحة الآن. وهو لن ينسى ما عرف أنه جاء من أجله. والقوى الخفية دائمة فى رأسه. وجسمه ينمو كل يوم نموا هائلا. لكن هل هذه سميرة حقًا؟

كانت تتلوى شبه عارية أمامه على خشبة المسرح. الأضواء حوله وفوقه. النساء جالسات فى الصفوف الأمامية والفتيات والأطفال. فى الخلف كان هو وسط الرجال الذين يتحلقون مناضد كثيرة. الليلة باردة بلا مطر. وسميرة تتلوى ببدلة الرقص الشفافة. الطبال ملتهب حماسا. عازف الأكورديون سابح فى النشوة. الرجال جميعا يعبرون عن متعتهم بأصوات خشنة، ونداءات بذيئة. رائحة الحشيش تملأ الجو، ودخانه يكون سحبا فوق الرؤوس.

نهض من بين الرجال واقترب من خشبة المسرح. إنها سميرة الجميلة ولا أحد غيرها. ظل ينظر إليها علها تنتبه له. قرر أن يحادثها فى النهاية. لكنها بعد أن انتهت، ولم تكن قد انتبهت إليه، دلفت

خلف السرادق حيث أقيمت غرفة للفرقة . غابت قليلا بينما كان هو قد انتقل ليقف على باب الغرفة ينتظرها . وحين خرجت كان حولها الطبال وعازف الأكورديون . كانت فى يدها حقيبة صغيرة سوداء ذات سلسلة معدنية مذهبة . رأى على وجهها أصباغا ثقيلة . هتف «سميرة» لكن خرج الصوت مختنقا ، ولم تنظر إليه . فقط رشقه الطبال بنظرة غضب . رآها تتجه إلى «تاكسى» قريب كان فيما يبدو ينتظرها . رأى الطبال وعازف الأكورديون يركبان خلفها . . رأى على المقعد الأمامى جوار السائق عجوزا قبيحة جداً . اختفى التاكسى فى الشوارع الضيقة .

ظل واقفا فى مكانه للحظات يسأل نفسه هل تدور الأرض حقًّا كما سمع الشيخ يقول ذات مرة؟ أم تدور الشمس كما تقول أمه دائما؟ لقد انتهت الحرب بعد أيام قليلة ، وعرف القصة كلها . قالت له صفاء إن الشباب استطاعوا أن يجبروا الدولة أن تحارب . قالت بعد ذلك إن ابن الشرطى قد استشهد بعد أن التحق بفرق المقاومة الشعبية ، وإن الخسارة فيه كبيرة ، فقدكان وطنيا غيوراً . وإنه هو الذى كان ينظم الطلاب فى الجامعة للقيام بمظاهرات . وشرحت له كل ذلك .

ولما كاد يسألها عن فريد حدثته هى بعد أن عرفت من أين أتى .

قالت له إنها تعرفه قبل أن تراه . وأن فريد كان ينقل إليهم صورة واضحة عن حياتهم . وأنها تعرف أن له أختا شقراء . وأن بينهم تسكن أجمل امرأة فى الدنيا اسمها سعاد . وجد زوجها مقتولا صباح ليلة مطيرة . ثم قالت له ألا يسألها عن أى شىء ، وأن يفكر فى العودة بسرعة .

كانت قبل ذلك وفى اليوم الثالث للحرب قد أخبرت ابن الشرطى

بأنها وجدت عملا لعلى فى الجراج الذى يملكه أخوها والذى به ورشة ميكانيكا .

لم يكن على يعرف أن الشرطى قد طلب من ابنه أن يسعى فى البحث له عن عمل . عرف منذ ذلك اليوم اسمها . وكان قبل ذلك يراها تصعد إلى السطح فقط . كانت حلوة دقيقة الملامح . ذات شعر أسود وعينين عسليتين ووجه مستدير قليلا وأنف دقيق وشفتين مثل حبتى عنب . وتبدو وهى تتحرك مثل طفلة مبتهجة .

وكان حديثها إلى على بعد أن ألحقته بالعمل عند أخيها . ثم قالت إن هذا هو العمل ، لكن لا بد أن يعود فهذا أفضل . وكانت خائفة .

زارت صفاء بعد ذلك أخاها بالورشة أكثر من مرة . فى كل مرة كان على هو الذى يقدم إليها الشاى . كانت تسمح له بالجلوس معها فى المكتب خلف الجراج الكبير . سمعها توصى أخاها الذى كان فى سن الأب أن يعلمه الميكانيكا . ودائما كانت تقول له إن على لن يظل فى الجراج طويلا . حاول هو أكثر من مرة أن يسألها لماذا استحق فريد ما حدث له لكنه عجز . وفى إحدى المرات كاد ينطق لكنه لمح دمعة تترقرق فى عينيها! قالت لم يكن فريد مخلصا دائما . .

ظل طوال الشهور الستة التى انقضت يحاول أن يصل إلى إجابة فى مبنى هندسة السكة الحديد . لكن كان دائما يتكرر معه ما حدث أول مرة . بعد الحرب قال له نفس الرجل الأول إنهم يعيدون ترتيب القطارات ، بعدها ينظرون فى أمرهم .

ظل على أمل واه ويدرك أنه أمل واه . يسأل نفسه ما شأن القطارات

بالحرب التى حدثت بعيدا جداً، فى الوقت الذى تقدم فيه فى فهم الميكانيكا فقرر أن يفهم أكثر. صارت السينما هى ملاذه حين يضيق صدره، فجعل كل مساء يتوه فى خيالاتها. ثم يعود لينام فى الجراج، وهو يشعر أن القوى الخفية تدوم فى خلايا مخه. حتى اصطحبه زملاؤه بعد هذه الشهور الستة، إلى هذا العرس الذى رأى فيه سميرة ترقص، فطار منه العقل، وتاق إلى رؤية صفاء وسؤالها عله يجد إجابة. هل يمكن أن يقول لسميرة لماذا لا تذهب وتبحث عن مرسى فيحدث كل هذا؟ تذكر عبد الله أبا سميرة وهو يسير رفيع العنق عالى حدبة الظهر، حاملا المقطف العالى المعلق فى العتلة فوق كتفه. مرتديا الزى الأخضر القاتم المرتق فى أكثر من مكان. لقد خرج بعد اختفاء سميرة ولم يعد قبل أن يغادر هو المنطقة. وبالتأكيد لم يعد حتى الآن. فهاهى سميرة الجميلة حقًا أمامه راقصة بالمدينة الغريبة.

قرر أن يحضر كل الأعراس التى يسمع عنها أو يراها عله يجد سميرة مرة أخرى ويحدثها. لو نظرت إليه ستعرفه. لا يمكن أن تنسى آخر مرة التقيا فيها، وتخيلته مرسى خطيبها المسافر فوق القطارات. والذى سأل عنه فى أحد مكاتب الهندسة فلم يصل إليه. قال له الرجل الذى لديه كشوف أسماء العاملين جميعا «أنت تسأل عن وهم. شاب اسمه مرسى يعمل مسافرا فوق القطارات!؟ هذه مهنة مؤقتة. فالمسافر قد يعمل عملا آخر ثم إنك لا تعرف الاسم كاملا. وهناك مئات باسم مرسى. ثم صمت قليلا وقال. يا ولدى أنت أسئلتك غريبة وحكاياتك عجيبة!». وفى مرة أخرى قال له «صرت تتردد أكثر مما ينبغى حتى صرت معروفا ومشبوها، وأخشى عليك بعد ذلك».

* صارت المدينة مشغولة بأحاديث غريبة . فهناك سخط وهناك تأييد . بعض الناس يقولون لماذا الحرب إذا كانوا سيأتون هنا؟ وآخرون يقولون إنهم شاهدوهم يمشون فى أماكن مختلفة من المدينة يشربون «البيبسى» أو يلحسون الجلاس فى عز البرد . . وعرف أن تلك المخلوقات التى عاشت تهدد الدولة قد ظهرت فى المدن . وأن الأعداء تصالحوا على دم الشهداء . فأدرك أن ما قالته صفاء عن ضرورة عودته فى أسرع وقت مهم لكن كيف ، ولماذا؟

لكنه فكر إذا كانت فعلا حدثت حروب كثيرة مات فيها شهداء كثيرون فكيف تنقلب الأمور بهذه السرعة؟ إن صبيا كان يعتدى على المنطقة التى يصطاد فيها كان يتشاجر معه ويضربه ، ويظلان متخاصمين . فما بالك إذا كان فى الأمر دم سال؟ اقتنع أنه لا قبل له بما يحدث حوله وأن ما قالته صفاء ضرورى ولكن كيف!؟

عرف أن صفاء غادرت المدينة مع والدها الذى انتقل للعمل بمدينة أخرى ، وظلت كلماتها فى آخر مرة حين قالت له أن يعود فيدرك أهله . تتردد فى أذنيه كأنها عالقة بهما . لكن من جديد كيف؟

كان بين أهله فلم يدركهم ، وأحس بعض المقت لهم . جاء هنا فلم يدركهم أيضا . تضايقه القوى الخفية التى لا تريد أن تنزاح عنه ويضايقه كبر جسمه على هذا النحو .

صار الآن مثل شاب فى الخامسة والعشرين يحس بطاقات كثيرة تغلى فى عروقه . كره السينما ؛ لأن صورها العارية تثير فيه غرائز قوية لا قبل له بكبحها . خصوصًا حين يعود لينام وحده ليلا فى الجراج المعتم . وهو لا يريد أن تزكم أنفه الرائحة الكثيفة التى كانت تتسلل إليه

من سرواله منذ أكثر من عامين مرة أخرى. وبالسينما أيضا راقصات كثيرات يرددن ذهنه إلى سميرة التى اختفت ولم يعد يعرف كيف يجدها.

لكنه سمع العاملين بالجراج يتحدثون ذات صباح عن راقصة تملأ المدينة اسمها «نانا» وعن السرادقات التى تقام فى الخرابات وعلى الشاطىء تقدم ألعاب السيرك والبهلوانات وألعاب القمار. وأن «نانا» هذه تقدم نمرها فى كل مكان.

قرر أن يذهب ليرى هذه الراقصة وفى داخله يقين أنها سميرة. وأنه وقد فشل تماما فى الوصول إلى شىء عن القطار فى مبنى الهندسة، فلا بد سيصل إلى سميرة الجميلة ويعود بها. بعدها سينفض يده من الأمر كله. وهذه المدينة سيتركها. ولن يهمه أن يتصالح الأعداء على دم أو فوق ماء!

صار يدخل كل مساء أكبر قدر من السرادقات. يرى على واجهة السرادق صور قبيحة لراقصة تتأود، وجهها قريب الشبه بوجه سميرة لولا أنه يشع بذاءة. إنه لن ينسى وجه سميرة البرىء كوجه طفلة أبدا. تحت الصورة «مانشيت» ضخم يعلن عن الراقصة النارية «نانا زمبلك» يدخل السرادق الذى يقف أمامه باعة لكل شىء. وأصحاب ألعاب لم يرها من قبل. ألعاب نارية وورق وقذف أثقال ورماية. يفض الزحام بيديه ويوسع لنفسه طريقا. يرى وجوها غريبة شوهاء لبشر سود وبيض. ونساء متشحات وسافرات والأصباغ تعلو وجوههن بطريقة مقززة. فوق خشبة المسرح رجل يعلن عن الساحر ثم البهلوان ثم عن الراقصة النارية. تظهر سميرة ترقص بقرف شديد

وهو ينظر إليها يكاد يبكى. حين تخرج يجرى إلى الباب عله يحدثها. لكنها الآن صارت تخرج محاطة بالطبال وعازف الأكورديون، ومعهما اثنان يبدو أنهما حارسان خصوصيان، قويان يستطيعان الفتك بمائة رجل. يترك السرادق ويذهب إلى آخر.. يحدث نفس الشىء.

ظل ليالى كثيرة يفعل ذلك، كل ليلة حتى الفجر. لم يفز إلا بعناوين اللافتات التى صار يحفظها والتى تعلن عن الراقصة النارية، والراقصة البهلوانية، وراقصة كل ليلة، نانا زمبلك وكبريت وهوا وكهرباء ونحو ذلك. بعد أن أمضى حوالى شهرين فى هذه المطاردة الخائبة، اكتشف أنه نسى كل شىء عن أهله وعشيرته، فقرر للمرة الأخيرة أن يحدث سميرة ولو كلفه ذلك حياته وبالفعل استطاع. رآها تخرج من أحد السرادقات فتوجه إليها كطلقة نارية. أمسك بذراعها ولم يدر ما حدث بعد ذلك أو كيف؟

وحتى الآن بعد انقضاء عام كامل، وقد قرر أن يعود فى الصباح، والجراج يتسع أمامه متوحشا فى هذه الليلة الصيفية التى تجمعت فيها حرارة ورطوبة السنين كلها والعربات الواقفة أمامه تبدو مثل قبور مهدمة. حتى الآن لا يعرف هل كانت الضحكة الطويلة الممدودة الرفيعة العميقة التى انقذفت إلى أحشائه كسكين ثلمة، ضحكة سميرة حقًّا أم لا؟

هل كانت سميرة التى ضحكت أم أن شيطانا داعرا تلبسها؟ حتى الآن لا يذكر صورة لما حدث إلا كصور أفلام العصابات. حين تحدث معركة سريعة تطير فيها الأجساد بطريقة محكمة، وتنتهى فى ثوان

مـخلفـة وراءها قـتلى وجـرحى. ثم يقف بطل الرواية سليـمـا مـعـافى ويتقدم إلى الأمام معيدا ترتيب ثيابه فى أناقة، ويقبل الفاتنة الحسناء.

لكنه فى تلك الليلة لم يرتب ثيابه ولا قبل الفاتنة الحسناء. فما كاد يمسك بذراعها حتى هجم عليه الشخصان القويان. أسرع من الخفاش طار فى الهواء، وضرب أحدهما بقدميه والآخر بيديه معا فى وقت واحد فسقطا فوق الأرض فاقدى الوعى. وقف ينظر إليهما والنار تطير من عينيه، ولا يكاد يصدق أنه هو الذى فعل ذلك. الذى ينظر إليه حين هجـمـا عليـه يرى أنه ميت لا محـالة، فـجسـمـه الذى نما نموا هائلا لا يضاهى نصف جسم أى منهما. وهو لا يعرف من أين واتته هذه السرعة فى الحـركـة. ولا كـيف استطاع أن يتـفـوق عليـهـمـا. وقف عـازف الأكورديون والطبال مبهوتين وقد تملكهما الخوف. فرفع كل منهما آلته أمام وجهه يحتمى بها. لكنه كان قد أدرك ما يريده بالضبط. أسرع إلى سميرة وأمسك بذراعها فصرخت إذ أحست أن ذراعها تكاد تنفصم تحت أصـابعـه. كـان يعـرف أن الزحـام الشـديد أمـام السـرادق مـركـز الأبصار عليه، وكان يتوقع هجوما من كل جهة، فصار متحفزا كله. لكنه وجد نفسه يقول لها بألم بالغ:

ـ أنت سميرة. ألا تذكرينى؟ أنا على أخو ليلى.

لكن سميرة نظرت إليه من أعلى إلى أسفل. وكان قد ترك ذراعها فتنفست وبدا أنها تتذكره. راحت عيناها تترقرقان بدمع شفيف. ثم انطلقت فى ضحكة فاجرة طويلة رفيعة عميقة كسكين ثلمة تلوت فى أحشائه وتركته واقفا لا يعرف ماذا يفعل؟

غير أنه بعد ساعة. وجد نفسه يدق بعنف باب بيت أحد زملائه من العاملين فى الجراج. حينما خرج له زميله قال بسرعة وحدّة:

ـ ارتد ثيابك فورا .

ـ ماذا جرى؟

ـ ستعرف فى الطريق .

أحس بالذل والتفاهة . كان غاضبا . وكان مشتاقا . قال لزميله فى الطريق :

ـ المرأة التى حدثتنى عنها كثيرا هل نجدها الآن؟

قهقه زميله مندهشا فطالما عرض عليه أن يذهب معه إلى هذه المرأة التى حدثه عنها كثيرا لكنه كان دائما يرفض .

أخذه الزميل إلى شارع ضيق بعد أن استقلا تاكسيا قطع بهما مسافة طويلة وأنزلهما على شاطىء البحر عند الطرف الشرقى للمدينة . كانت البيوت على جانبى الشارع الضيق مغلقة . والوقت بعد منتصف الليل بساعتين . أسلمهما الشارع الضيق إلى حارة أضيق، قذرة امتلأت أرضها بمصاصات القصب والبراز الذى تصعد رائحته إليهما . عند باب واسع أكثر مما ينبغى دخلا . صعد الزميل السلم الخشبى القديم مكسور السياج، وصعد هو خلفه . . وضع زميله سبابته على شفتيه إشارة إليه ألاّ يصدر صوتا . صعدا طابقين . عند الطابق الثالث الذى كان مظلما جدًا توقف على مقطوع الأنفاس يشعر بالعرق يغطى جسمه، وبشعر رأسه يقف مثل شوك القنفذ، بينما جعل زميله يطرق الباب ثلاث طرقات خفيفة .

بعد لحظات أضيئت لمبة صغيرة معلقة أعلى الباب من الخارج فتحت الشراعة وأطل منها وجه عجوز متلفحة بشال أبيض . . أشار إليها زميله إشارة متفق عليها ففتحت الباب بهدوء . . دخل وعلى خلفه .

وكأنما قرر شيء ما في الكون أن يواجهه بكل شيء مرة واحدة بدا كأن القوى الخفية التي دوت في رأسه ولا تزال، ودفعته إلى مدينة يجهلها، قد قررت أن تكشف له عن المستور كله.

في تلك اللحظات ما كان يريد غير أن يدفن غضبه في ساعة هروب عقيمة وكان قد نسي تماما أن المكان الوحيد الذي يمكن أن يجد عنده حلا، وهو هندسة السكة الحديد، لم يصل فيه إلى شيء وأن سميرة التي ملأت المدينة قد سخرت منه، ولم يستطع أن يعود بها فيكسر دائرة الزمن الجهنمية. وصفاء التي أضاءت ذهنه رحلت، ولم تتم حديثها الذي كم ود لو اكتمل، بينما كادت سعاد أن تمحى من ذاكرته تماما، وأحس وهو جالس في الردهة يتطلع إلى المقاعد العريضة المغطاة بقماش مورد حالت ألوانه، وإلى المناضد الصغيرة في الأركان فوقها أكياس قطن وزجاجات صغيرة لا يعرف ما بها، إن هنا إصرارًا في الكون على سحقه.

كانت العجوز المتشحة بالبياض قد دخلت حجرة مواجهة وعادت بعد لحظات فقدمت إليهما سجائر وهي تقول «قليلا وسيخرج الزبون. لقد تأخرتما كثيرا!».

دخن لأول مرة في حياته، ود لو أكل السيجارة وابتلعها، لم يغيب عن ذهنه أن الكون مصمم على سحقه وخرج الزبون الذي رآه رجلا أسود ضخما ذكره وجهه المليء بالحفر بوجه زيدان الذي لا يعرف أين وصل الآن. وبعد لحظات قليلة يئس خلالها من كل شيء، ولم يعد يشعر حتى بوجود زميله جواره، خرجت إليهما زينب زوجة حامد!

إنها زينب ولا أحداً غيرها. يعرفها جيدا وإلا مادب النمل فى ساقيه، وما اضطرب قلبه. زينب التى ما رآها إلا محتشمة فوقها تل من الثياب، وفى ذيل جلبابها تعلق أطفالها الثلاثة ومخاطهم سائل حتى صدورهم. ترتدى الآن قميص نوم أبيض يفضح جسدها البرنزى. يقف زميله لاستقبالها ويبتسم وهو يقول إنه جاءمن أجله، يعنى على، وإنه سيتركه لها. ثم يقول متخابثا إنه غشيم! ويقهقه بينما تبتسم زينب وهو محترق الصدر والرأس، يشعر أن شخصا فتح رأسه وقلب داخله فحم الفواريكة كله.

انصرف زميله وظلت هى واقفه أمامه متعجبة لأمره إذ وضع رأسه بين كفيه، وأطرق ناظرا إلى الأرض من بين ركبتيه:

كان يحس بالعجوز وهى تقف بعيدا أمام باب إحدى الحجرات تنظر إليهما فى دهشة ويفكر أن زينب قد لا تعرفه أبدا. إن جسمه هذا الذى نما نموا هائلا لا شك أمر مضلل، أما وجهه الذى لم يره فى المرآة منذ شهور، فلن يختلف عن جسمه بالتأكيد.

جلست زينب فوق الأرض باسمة متحيرة قليلا. كانت جميلة تبدو كمصباح صغير شاحب فى ليلة مظلمة. قال:

- كيف حالك يا زينب؟

اضطربت.. قالت بهدوء:

- ماذا تقول؟

رفع وجهه ونظر إليها نظرة طويلة ثابتة. قال:

- كيف حالك يا زينب.. ألست زينب؟

أخذت شفتاها فى الارتعاش. لم تستطع أن تسيطر عليهما. أشارت إلى العجوز أن تدخل. لم ينتظر أن تتكلم. قال:

- انظرى إلى وجهى جيدا.

نظرت . .

وحدثته كثيرا بعد ذلك. كان طوال حديثها يردد لنفسه «أى روح شريرة تلبستنا جميعا؟» قالت له إنه قد كبر كثيرا كأن أعواما طويلة قد مرت ولا أحداً يدرى.

قال لها دون إرادة إنه قد شاخ وانتهى . . وبكت فى النهاية.

أخذته بعد ذلك إلى حجرة مغلقة. حين فتحتها رأى أم جابر العجوز متكومة فى ركن والأطفال الثلاثة فى ركن. قالت إنها - العجوز - صارت تخرف ولا تتحرك، وتبول على نفسها وتطلب الموت الذى لا يجىء. تقول إن جابر خدعها وناداها وهى توشك أن تغرق فقررت أن تنتظره لكنه لم يأت.

لم يكن على يعرف أن أم جابر قد غادرت المنطقة هى أيضا. سألها كيف جاءت إلى هنا، فقالت له إن الذى أحضرها هو الذى عاد وأحضر أم جابر والأطفال. وجدهم فوق الجسر نائمين جوار خص مهجور. سألها عن ذلك الذى أحضرهم، فقالت له المهم الآن أن تراه كثيرا فهو رائحة طيبة من الماضى الجميل!

خرج ساخطا. قال يا ربى لماذا حملتنى أن أخرج خلف ما لا أعرف دون العالمين؟ وكان أبوه حين ينتهى من الصلاة يدعو الله قائلا «اللهم ارفع مقتك وغضبك عنا» وقال إنه لو كان واظب على الصلاة

خلف الشيخ مسعود لأسعفته الذاكرة بأدعية كثيرة. فهذا زمن لم يبق لبنى آدم فيه غير الدعاء. يصل إلى السماء أو تطيره الرياح! ثم قال: «اللهم إن لم تكن لى عونا فلا تكن على نقمة». وأسرع يمشى فى الطرقات.

كان الفجر قد مضى وشابورة كثيفة تغطى المدينة فأحس كما لو كانت قد انتقلت إلى السماء تذكر حين يخرج مبكرا لصيد السمك والشابورة تغلف الدنيا، وهو يتبارى مع أترابه فى من يخرج من فمه مع الزفير بخار ماء أكثر.

حين بدأت موجات البخار تجف، وظهرت له المبانى العالية وكادت تملأ عينيه، وكان قد وصل إلى شاطىء البحر، أحس بها تكاد تسقط فوقه. كانت أرض الشارع مبللة. رائحة تملأ أنفه، برد الصباح يكاد يطويه على بعضه. لكن صوت الموج الهادر كان داعيا مبهما فخلع ثيابه وهبط إلى البحر. غطس بسرعة فى الماء، ثم وقف بالقرب من الشاطىء متخشبًا يقاوم الارتعاش، نصفه الأسفل تحت الماء والموج يضرب فى نصفه الأعلى.

المدينة حوله طويلة منحنية كأنها حضن أم غريبة! خلفه وأمامه قوارب كثيرة فارغة متفرقة بلا نظام، وشباك منشورة فوقها، أو على الرمال فوق أعمدة خشبية رفيعة، فتذكر يوم مجيئه وأول ما قابله من المدينة عند طرفها الغربى. لكنه حين رأى الكورنيش الطويل منحنيا مع امتداد الشاطىء وخاليا. والبيوت العالية الممتدة بإزائه مغلقة النوافذ، تساءل على أى شىء نامت وعلى أى شىء تنهض هذه المدينة. أحس بالخطايا تملأ الأركان، وتشع من خلف الجُدر، وتمرح فى الطرقات تزحم الفضاء الذى خلقه الله رائقا نظيفا.

غادر الماء وارتدى ثيابه وهو يتساءل متى كان حضن الأم الغريبة حنونا؟ أخذ طريقه إلى الجراج ماشيا على الرغم من بعد المسافة.

صارت المدينة تستيقظ من حوله. جعل ينظر إلى وجوه الناس ولأول مرة يرى الغرباء الذين سمع عنهم. والذين انقسم الناس فى شأنهم. تذكر بأن آخر قطار رآه يحمل الخواجات كان يقف بعيدا عن المحطة. وأنه اندهش لذلك. الآن بدا له كأن هذا القطار متحفزا لشىء. تماما كما يبتعد الإنسان أو الحيوانات للوراء قليلا حين يقرر أن يهاجم شيئا أقوى منه أو يتوقع أن يكون قويا. أحس أن هناك دخانًا غير مرئى يملأ عينيه تصدره محرقة عظام بريئة وفى هذا اليوم بعد أن وصل إلى الجراج متعبا جاءت صفاء فى زيارة سريعة لأخيها عند الظهر. لم يطلب أخوها منه أن يقدم إليها الشاى لكنها أرسلت فى طلبه فذهب لا يتوقع خيرا.

- أما زلت موجودا؟

- . . . .

- لا يغرنك جسدك القوى. أنت صغير وهذه المدينة ستشهد أياما صعبة. تردد قليلا ثم قال:

- كنت أريد أن أحدثك فى شىء. .

قالت بحزم غريب:

- لامعنى لأى شىء.

أراد أن يحدثها فى أمر سميرة وزينب فسدت الطريق بكلام ملغز.

أحس بالالتياع يجتاح صدره، والشوق العارم للأيام القديمة. لكن تبقى له بعض أيام يقضيها يتحدث إلى زينب.

أصبحت حياته فى الجراج على وتيرة واحدة عمل بالنهار ونوم بالليل. ولم يعد يذهب إلى السرادقات التى عرف بعد ذلك أنها أزيلت عن آخرها. إن الأجانب الذين يفدون على المدينة بكثرة هذه الأيام. قد استغلوا أماكنها فى إقامة فنادق ضخمة يقول الناس عنها إنها ستكون بيوت دعارة لأجمل فتيات العدو القديم. ويتحدث البعض بسخرية، الآخرون يتحدثون بشبق، ويقولون إن الشوق قد طال لهذا النوع من الفتيات والنساء اللاتى كن يملأن المدينة قبل دوران السنين.. عزف عن حضور الأفراح. وعرف بيقين قاطع أن سميرة لن تظهر فى المدينة مرة أخرى.

زار زينب للمرة الثانية بعد أيام قليلة. حدثها بأمر سميرة فقالت له كثيرا ما يكون الخيال كالحقيقة. وأنها لو كانت سميرة لتحدثت إليه كما فعلت هى وحين رأته يتلفت حوله ليرى أم جابر والأطفال إذ إن الوقت نهار، قالت له إنهم لا يخرجون من الحجرة. وبكت وهى تقول إن الأطفال لم يعودوا يكبرون بينما تتضاءل أم جابر يوما بعد يوم!

لكنه رأى على وجه زينب صفرة عميقة وفى عينيها هروب إلى شىء غامض اتضح له فى الزيارة التالية. لقد وجد العجوز التى فتحت الباب أول مرة ووجد معها امرأة أخرى. حين سألها عن زينب قالت إنها لا تعرف أحدا بهذا الاسم. حدثها عن أم جابر والأطفال فقالت إنه يهرف بأشياء غريبة. انطلق كمجنون يبحث فى الحجرات فلم يجد إلا ثلاث نساء عاريات قبيحات، وثلاثة رجال سود مكتهلين. خرج

بعد أن توقف فى الردهة قليلا يكاد ينفجر بالغضب. لم يفعل شيئا للمرأة الأخرى التى تقدمت نحوه بعهر عارم.

بات تلك الليلة يتساءل أين الحقيقة وأين الخيال؟ أين ما قالته زينب التى لم يمسسها؟ أين زينب؟ جعل يحصى الأيام التى أمضاها فى المدينة فوجدها أحد عشر شهرا لم ينجز فيها شيئا، ففكر أنه قد آن أوان الانطلاق.

فى الصباح لم يأت صاحب العمل.. سمع العمال يتحدثون عن سفره المفاجئ إلى المدينة التى انتقل إليها أبوه. حدس غامض أسر إليه أن شيئا سيحدث. فى اليوم التالى سمع العمال يقولون إنه - صاحب الجراج - كان قد تلقى فى منزله مكالمة تليفونية من أبيه، فعلم أن صفاء أخته قد قبض عليها ضمن مجموعة كبيرة من الطلاب يناوئون دخول الأعداء إلى البلاد.

لم يكن سير العمل على ما يرام فى هذا اليوم إذ وردت إليهم سيارات من أنواع لم تكن ترد من قبل. سيارات فارهة الطول والعرض يقودها صبية وفتيات صغار أو رجال قبيحو الوجوه لهم كروش بارزة. يتحدثون بصعوبة. وإذا ضحكوا يضحكون بشراسة. شاهد الميكانيكية يتشاحنون على استقبال هذه العربات. شاهدهم يلعنون العربات وأصحابها بعد أن تمضى. وقالوا عن أحد أصحاب هذه السيارات، وكان يجلس فى الخلف ويقود سيارته سائق أسود، إنه بدأ حياته حمالا فى الميناء، ثم استطاع أن يضرب ضربة كبرى فى صفقة مخدرات تحول بعدها إلى أكبر تاجر أخشاب فى البلد. والغريب أن معظم هذه السيارات لم تكن مصابة بأعطال!